نورُ الحبِّ

إنّه صباح يوم الجمعة، يومٌ مقدسٌ كالعادة عند المسلمين، وقررت أن أهدي صديقي العزيز بمناسبة هذا العيد فعزمت أن أذهب إلى بلده، وحضرت نفسي، وكانت بلده تبعد عن بلدي ليس بكثير مسافة ساعة بالطائرة، وأنا أعلم أن موطنه يتبع الشريعة الإسلامية، وموطني مسيحي وأنا مسيحي الأصل، ولم يمنعني ذلك أن أهديه فلقد كان عوني في أصعب الظروف، ولذلك اخترت يوم عيده، وركبت الطائرة نزلت من المطار لأجد أمامي بشر ملامحه سمِحة ودافئة تحبُّ أن تنظر لهم وركبت الباص المؤدي لقريته، ونزلت من الباص لأجد أمامي فتاة تلبس فستاناً فضفاضاً يعتلي وجهها نورٌ ربانيّ وخدودها تمتلك من لون الورد ما تشتهي الأعين أن تراه، صفاء قلبها يعتلي عينيها ببراءة المتهم من القضية، شعرت أنها خطفت روحي من دون سابق إنذار، حاولت أن

الملم حالي وأتمالك أعصابي وإلا أنظر لها حتى لا تصيح في وجهي أو تنتبه فيريد الناس بي وقتها شراً، وأوقفت أحدهم أسأله عن موقع المسجد فدلني عليه بابتسامةٍ رحبةٍ وسماحةٍ جميلةٍ، وانطلقت للمكان وتركت قلبي لهذه الفتاة، وعقلي يفكر بها طوال الطريق حتى وصلت وكان الناس يدخلون المسجد بكثرة ويتسارعون من يدخل أولاً، ويسلمون على بعضهم بوجوهٍ سمحةٍ، أوقفني أحدهم وأنا داخل وسألني مستفهماً ومستغرباً:

-أنت لست من القرية؟!

فرددت والخوف والارتباك ظاهرٌ عليّ:

-نعم... لست من القرية...

فقال الرجل ووجهه تبسم وهلل قائلاً:

-مرحباً، مرحباً، بالضيف... فأنت ضيف القرية كلها، وكرمك عندي اليوم، وضيف من أنت؟؟

وقبل أن أجيب قال المؤذن بصوتٍ رجَّ أعماق قلبي قائلاً: الله أكبر... الله أكبر... شعرتُ وقتها أني

سأبكي وارتجفت من الداخل، ووجدت الرجل يقول لي: سنكمل يا أخي بعد الصلاة.... وأشار لي بالدخول وأجلسني بجانبه، وبدأت أستمع للخطبة، وكانت تتكلم عن الإسلام ومفهومه، وأنا لا أعرف لماذا قلبي يرتجف، وأشعر بنوعٍ من الرهبة، والكلام يهز أوساط عقلي، واضعاً إياي في حيرة مع نفسي، والتساؤلات تزيد في عقلي، وانتهى الشيخ من الخطبة، وقفت لأذهب فأسأله وإذا بالرجل الذي جانبي يعدلني للإقامة ويقف بجانبي، والشيخ يبدأ بالفاتحة، شعرت أنها تنزل على قلبي كمطهرٍ يغسل داخلي، وقطرات الدموع الغزير تنزل على خدي عابرة إلى الأرض وتضع علاماتها على الطريق الصحيح وبدأت أفعل مثلهم، وأول ما سجدت أحسست شعوراً بالسلام الداخلي، أحسست بأن الوجع داخلي يتحرك يفنى، وأن شيئاً من السكينة، التي لم تعرف الطريق لقلبي يوماً، تمكن مني، وبعد أن انتهيت استأذنت الرجل الذي معي، وذهبت للشيخ طالباً الانفراد به، فرحب بي وأخبرني

بأن أنتظر حتى يخرج من في المسجد فذهبت وانتظرت، ووجدت الشيخ بعد أن خرج الجميع واقفاً أمامي، ثم جلس وسألني وكأنه يعلم:

-أظن أن أمراً كبيراً قد ألم بك، أخبرني لعلّي أريحك أو أعينك.

نظرت له وقصصت عليه كل ما حدث ثم رد عليَّ بسؤالٍ:

- وماذا بعد؟؟ .....

- فقلت له: أريد أن أتعرف على دينك هذا، فتبسم وأخبرني بالمبيت عنده ثلاثة أيام، فوافقت فقال لي: مرحباً بك.

وأدخلني بيته، بيتٌ بسيطٌ لا يحمل أيّ زخرفة، عبارة عن دورين الدور الأول في غرفة فيها سرير كبير ومقعد والغرفة الثانية أول ما تدخل تراها أمامك فيها خمسة مقاعد وحمام كبير ويوجد سلم يصل للقبو، والدور الثاني وما فهمته بعد أن القبو يوجد فيه المطبخ ومكان الغسيل وتوجد حديقة خلفيه

للحيوانات والطيور تربي فيها، ووجدت أول ما دلفنا بيته صوت فتاة تقول: أبي، قد جاءت .....

وأول ما لمحتها عيناي صدمت، وحدثت نفسي: إنها الفتاه نفسها وهمت بها مجدداً، ثم تمالكت نفسي مسرعاً.

ووجدت أباها يقول معللاً على وجودي: هذا ضيف، قد جاء طالباً لتعلم ديننا، فجهزي له يا ابنتي الغرفة، والطعام لكي يرتاح.

وجدتها تمتثل لأمر أبيها كقطة مطيعة جميلة البهية وتقول لي بفرحة ظهرت في عينيها: السلام عليك، ومرحباً بقدومك.

فتبسمت لها بهيام رغماً عني، ثم قلت لها: شكراً.

وشعرت بخجلها مني وذهبت للغرفة لتحضيرها، قررت في داخل نفسي أن أكفَ عن الهيام بها فهذا بيت والدها وأنا ضيف وعليّ احترام ذلك.

وبعد أن انتهى الغداء قال لي والداها: ادخل واسترح قليلاً، ثم بعد ساعة سآتي لإيقاظك من أجل أن نبدأ،

فتمثلت لأمره ودخلت، وحاولت أن أجتذب أطراف النوم ولكن عقلي مازال يفكر بها، ببراءةِ عينيها وجمالِ خديّها، وحُسنِ طلتها، وحيائها الذي كطيف يجذبك له ويحتل كل شيء، ويبدأ النبض يغزو كل أركان قلبك وتشعر أنك في عالمٍ آخرٍ من الهيام كأنك في جنة واختيرت لأجلك فقط، وهي فيها سلطانتك وأنت العبد لجمالها، غلام من غلمانها العاشقين لها، الهاربين من الكون في عينيها، كيف أصف جمالها الأخاذ، وهو لا يوصف، كيف أصف قلبي الذي سقط شاخصاً تحت نضارتها، لا أستطيع سوى أن أحلم بها وتزورني في حلمي، ولكن هيهات هيهات للنوم فحبها كالقهوة، وأنا صرت مدمناً للسهر، يا قلبي هل من هدوء؟ إني أناجيك هل من هدوءٍ من صرخة العشق الداوية داخلي؟ هل من هدوءٍ؟ ولكن لا جدوى فأنا أعذرك أعذر سقوطك فهي كنجمة سقطت من السماء لتعذب روحي، فيا قاضي العشق اقضِ لي بها....

وإذا بالباب يطرق ويدخل أبيها ويقول: هيّا بنا ويجدني مستيقظاً فيقول لي مستغرباً: لِما لم تسترح، أم أن الغرفة لم تعجبك؟!

فأقول له مسرعاً مطمئناً إياه: لا لقد أعجبتني، ولكني كنت أفكر لذلك لم أنم.

فيقول لي متفهماً حالتي: عندك حق، ولكن لا تقلق ستعرف كل شيء عن ديننا الحنيف بإذن الله.

فتبسمت له وأنا أحدِّثُ نفسي لو تعلم أني عشقت ابنتك، ما تركتني بين ربوع منزلك.

بقيت اليوم ولم ألمح ظلها ودلفت إلى غرفتي ألتمس النوم ولم أستطع، فأمسكت بما دوّنه لي الشيخ، وقرأته أحاول أن أسيطر على عقلي وألملم حالي وتفكيري في هذا الدين الذي غزا جزءاً مني، ولكنّها احتلت جزءاً لا يتجزأ من خلوتي، وتجانس أفكاري لتصل إليها، وهيهات للنوم في حضرة عشقها، وطلع عليّ الفجر وسمعت الأذان وهدأ روعي قليلاً، هدأ قلبي وأنا أستمع للأذان وبدأت قطرات من دموعي

تسبح أمامي، وأردد داخل قلبي: قد عشقتها في رحاب دينك، وأنا أتعلق بيقينك فاجعلها لي، وقطع أفكاري الطرق على الباب، وسمعت صوت أبيها يناديني ويقول هي لنذهب للمسجد، صليت الفجر معه، وبدأ يعلمني قواعد الدين الحنيف، أساسياته قواعده المتينة، يخبرني التدريج في نزوله، والحكمة من كل شيء، وإذا بي أسأله هل العشق حرام في الاسلام؟!، فتبسم لي ورد بهدوءٍ:

نحن لا نملك من قلوبنا شيئاً، ولكن نملك أفعالنا، فالحبُّ والعشق، القلب قد هوا بهما فنحن لا نملكه، ولكن نملك أفعالنا مثل أن تغض بصرك عن محبوبتك، ألّا تحدثها بكلام عشق، ألّا تخبرها بمشاعرك أن تكتم حبك حتى تجعل رباط الحبّ رباطاً شرعياً جميلاً، ألا وهو الزواج على سنة الحبيب فتصبح ملكاً لك وأنت ملكاً لها حينها تكون أفعالك كمحبوبٍ وعاشقٍ حلالاً طيباً.

نظرت له ثم قلت له بنفس متقطع وسريع وعيناي في الأرض:

أنا أريد أن أنكح ابنتك؟

فنظر لي الشيخ باستغرابٍ واستنكارٍ مني:

ابنتي !؟، ولكن أنت كيف، ومتي أحببت ابنتي؟!

فقصصت عليه اللقاء، أخبرته أني هِمتُ بها حد الجنون لا أنام بسببها، قلبي لا يتوقف عن النبض بمجرد أن يراها، في حضرتها النوم مسجون والقلب مشغول والعقل تائه فيها، والروح تداعبها بكلام الهوى، والعين لا تعرف سوى اختلاس النظر لها، وأني والله أهوى ابنتك، فأعطي لقلبي المجنون فرصة...

ونظرت حتى يرد عليّ وأنا متأمل في وجهه ناظراً كل الاحتمالات، غير متوقع القبول بي، وبعد دقيقة...

وجدته يقول لي: سأعطيك مهلة قصيرة تثبت فيها أنك تستطيع أن تتحمل عبء ابنتي، ولكن هذه ليست سوى موافقتي حتى تتقدم لخطبتها، وبعدها سواء أوافقت أو رفضت الأمر عائد إليها، شعرت

بسعادةٍ غامرةٍ وقمت وقبلت رأسه وشكرته كثيراً، تبسم هو على ردة فعلي وقال لي موضحاً:

-نحن في المسجد!

فقلت بعد أن نظرت حولي: عندك حق نحن في المسجد، ثم ابتسمت خجلاً على ما فعلت.

بعد مرور يومين من الاجتهاد مع نفسي، وصراع يومياً مع أفكاري وتركيزي حتى يكف ولو قليلاً عن الهيام بها في أفكاري، ولم ألمح خلالهما ظلها وكان قلبي ينقطع هل هي بخير، ولكن والدها من غير أن أسأله كان يقول لي هي بخير لا تقلق، وبعد الظهر وجدت والدها يقول لي مبتسماً ولمعة الفخر في عينيه: لقد كان اختيارك، ينم عن رجل، رجل عاشق محب حافظ والآن القرار قرارها.... قفزت من مكاني مهللاً وبدأت أصرخ فرحاً وأقول لأبيها: ما الذي ننتظره أين هي أرجوك دعني أحدثها، دعني أخبرها بنيتي بالزواج بها أرجوك.

فصمت والدها وقال مفهماً إياي: لا تنسَ القرار قرارها.... ثم خرج من غرفتي وذهب وأخبرها فقالت له باستغرابٍ: أعطني مهلة أسبوع يا أبي، وفي خلال هذه المدة عليه أن يعلم أهله وذويه بإسلامه وأن يبحث عن عملٍ في دار الإسلام وأن يثبت جدارته كرجلٍ لي، وأن يحفظ سورة النساء، والنور، ويعلم تفسيرهم، وأنت ستكون خير مراقب له يا أبي، فنظر لها الأب ثم قال لها حسناً ابنتي.

وخرج وقص عليّ ما قالته، وكنت فرحاً وقلقلاً من ألّا تقبل بي فأنا عاشقٌ لها، لم يغفل جبيني ولو للحظة وصرت أناجي الله كل يوم يجعلها لي، أخبرت أهلي فأنكروا أني ابنهم وتركوني بلا وطن ولا مأوى، وبدأت أذهب لإيجاد عمل ورفضت من أغلب الشركات بعد أن كانت الشركات تتلهف لأعمل معها، وجلست في المسجد رافعاً رأسي للسماء أناجي ربي، وإذا برجلٍ كبيرٍ جلس بجواري وقال لي وهو ينظر لهمي نظرة حُبٍّ: ماذا بك أيها الصبي!؟

فقصصت عليه حالي، فتبسم وقال لي: ما هو تخصصك!؟

فقلت له باستغرابٍ من سؤاله: برمجة وتصميم مواقع!

فقال لي والفرحة والابتسامة على وجهه: عملك عندي يا فتى

فهللت فرحاً وشكرته، وأسرعت لبيت الشيخ ودلفت للبيت فوجدت صغيرتي جالسة تطالع المصحف وعلى وجهها نورٌ رباني، وقفز قلبي مهللاً، وأول ما لحظت وجودي أمسكت مصحفها وأسرعت على سلالم المنزل تركض، فتكلمت بصوتٍ مسمعٍ إياها: الحمد لله قد أتممت الشروط.

وشعرت براحة كبيرة عندما رأيتها ودخلت لغرفتي وأيقظني الشيخ من النوم فقلت له: لمَ أيقظتني يا شيخ أنا لم أنم منذ أن أتيت هنا إلا اليوم، ماذا هناك حتى تيقظني ؟!

فقال الشيخ فرحاً: لقد وافقت ياسمين عليك

فتبسمت والذهول واضح علي ورددت له مكرراً: وافقت، وافقت، أحقاً وافقت؟!!

فقال لي: وافقت يا بني، والله وافقت.

فقلت له مسرعاً وأنا أفتح حقيبتي أقتني أجمل ثياب وأنظر للمرآة: كتبُ الكتاب يا شيخ اليوم، ما رأيك لو كان الغد لتحضر نفسها، أظن أنه من الأفضل أن يكون بعد أسبوع حتى لا تغضب وتستعد لتكون أجمل عروس، لا بل هي أجمل عروس من غير شيء... فنظر لي الشيخ وضحكته تعالت وقال: الفرح الخميس يا بني.

كتب الكتاب وأنا على أوج من نار أنتظر جميلتي وقد زفنا الشيخ إلى بيت الزوجية، أو كما تسميه أميرتي مملكتها، ولن أقول لكم أننا عشنا في ثبات ونبات، ولكننا كنا نزيل العقبات معاً ونتخطى البلاء معاً بقلوبٍ رحبةٍ وسماحة صدرٍ بيقين ولا زلت أعشقها، عشق القلوب والعمر الطويل، وأوقن أن الحبّ حلال

والعشق حلال، ولكن أفعالنا هي الحرام، فلا تجعل الحرام يغفلك عن جمال الحلال.

****